

## أين ارثنا المعماري .. العربي أين ؟ !

من خلال تتبع مسيرة التاريخ للحضارات الإنسانية في مجال العمارة ( الحضارة الصينية ، البابلية ، الأشورية ، الفرعونية وحضارات بلاد فارس وبلاد الهند والسند وبلاد ما بين النهرين وبلاد ما وراء النهرين وغيرها ) نري بانه قد أحتل المأوي ( المكان ) ، البيت والمدنية وامكنة النشاط الإنساني أحتل اهتماما كبيرا لدي البشر والحضارات المتعاقبة أيضا . ومع مرور الزمن تحول هذا لمكان ووفقا لوظيفته إلى تفاصيل كثيرة تستجيب وتتماشى مع المتطلبات الجغرافية والمناخية والعسكرية والاجتماعية أيضا لهذا الموقع أو لتلك البقعة من العالم .

وقديما أيضا ، كان المكان ( السكن ) تلعب دورا مهما سواء في لم شمل الأسرة وجعلها حلقة من التآلف والرحمة والتعاون في السراء والضراء وعلى صعيد المدنية أيضا ، فأصبح المكان والسكن والمدنية للأسرة وطنا محددًا تحل في داخله كل القضايا والهموم وبالتالي يتقاسم فيه هموم الأسر والمجتمع الفرح والحزن . وهاهي حضارتنا العربية والإسلامية والتي ولدت في حضانة مهد الحضارات والديانات ، والتي قد شبت على أرث هذا المهد ، قد شيدت لها مكانا وبيتا ومدنية لها خصوصياتها لمعمارية والإنشائية وخصوصياتها الجمالية الجملة مستجيبة للمتطلبات المناخية والجغرافية والاجتماعية والمتطلبات العامة والخاصة . فمن الخصوصيات العامة على سبيل المثال التي تميز بها البيت العربي التقليدي وجود الفناء الداخلي ، الذي

يخفف من تأثيرات المحيط الخارجي القاسية " عوامل الجو الخارجية " من الحر والبرد والرمل والمطر الخ ، ولهذه الخصوصية حالتان متميزتان الأولى : فناء داخلي وما يحيط به من غرف ودواوين وفي مركزه الماء والخضرة ( العراق ، سوريا ، مصر ، الإمارات العربية ) والثانية هي البناء العمودي " اليمن ، السعودية " وفي الحالتين تؤمن متطلبات ومستلزمات التهوية والضوء والظل وكل مكان من هذه الأمكنة يأخذ قسطه ، حيث يشعر المرء بالراحة النفسية والطبيعية والطمأنينة .

وفي عصرنا الراهن وفي ظل حركة العمران المتسارعة في بعض البلدان العربية تجري عملية البناء والعمارة في كثير من الحالات كمجرد استتساخ من هنا وهناك بدون الاعتماد والارتكاز على قاعدة علمية تكنولوجية بمعايير ومقاييس وتصاميم محددة تأخذ بعين الاعتبار هذه الخصوصيات لظروف المناخ الحار والحار الرطب والحار الجاف وتأثيراتها ، ناهيك عن خصائص أخرى .

من هنا كان لابد من وقفة متأملة في الواقع الراهن للعمارة ، من البيت إلى المدينة ، فمع كل هذا التطور الهائل في مجال البناء والعمارة والمستلزمات والأدوات الحضارية ومواد البناء في وقتنا الراهن ، هنالك ظهور نوعا أو بعضا من آثار سلبية تنعكس بالتالي على نفوس الناس نتيجة عدم إعطاء هذا المكان أو المبنى الوقت الكافي لعملية التصميم والدراسة ووضع الحلول الكافية والمستجيبة لهذه الخصائص

وبكل ما تقدم نتساءل اين مكانة هذا الإرث الأصيل ألم يحن الوقت للعودة اليه في ظل هذه الظروف ، أو على الأقل تلافى بعض السلبيات والأخطاء التي اتسم بها المعمار الحديث ؟

من المؤسف حقا أن قضية العودة إلى الإرث المعماري العربي والاسلامى وأثاره الجدل حولها أصبحت مجرد أهات وحسرات لا قيمة لها ، وقد تحولت إلى واحدة من القضايا التي طوي عليها الدهر جدارا من النسيان والضياع .  
أقولها حقا وعلى الصعيد الشخصي فإنني ما زلت أحمل هذه القضية في وجداني تنتقل معي أينما حللت في بقاع العرب لتزيدني أسا ، ويحز في النفس أن تشاهد عودة المدن الغربية إلى أرقها المعماري والمحافظة المستمرة عليه ، فيما نحن نعمر يوما بعد الآخر على نسيان هذا الإرث الجميل .

ولبيان وتوضيح الصورة أكثر ، لابدلنا من البحث في تراثنا العربي الحضاري المعماري والخوض والتفحص في معالم " ديارنا ، ومدننا " التقليدية والشواهد المتبقية من ذلك التراث العريق ،بدءا من البيت البغدادي ودواوينه وشناشيله وعناصره المعمارية وزخرفته الزاخرة بقيم جمالية رائعة ، وفضاءات البيت العربي الدمشقي وناقورته وحدائقه التي تزيد أمسياته بهجة وروعة ، مروراً بالمشربية المصرية ذات الظلال والهواء العليل ، وظلال أزقة وأسواق المغرب العربي وألوان مشربياته الزاهية من قسطنطينية حتى فارس ، ووقوفا عند ناطحات السحاب في جدة وحضرة موت وبراجيل " لقفات الهواء " الإماراتية المخففة من وطأة لهيب الصيف وغيرها العديد من مدننا العربية المتناثرة من المحيط إلى الخليج .

لمست في طرحي هذا من المتعصبين " جدا " للرجوع إلى الإرث المعماري ، ولك لا يرد عني القول بان الوقت قد تغير ، والمواد المستخدمة والمستلزمات الأخرى للبناء والعمارة قد تغيرت ، فإنني أذكر وبشهادة خيرة معماري العالم الغربيين " دريفيوزيه ،كروبيوس ، لي كوربوزيه ، فارونينا " وغيرهم ، بأنه لا استغناء عن هذه العناصر المعمارية ووظائفها للعمارة في جو المناخ الحار ، حيث رأي هؤلاء المعمارين والاختصاصيون بعد دراستهم لهذه العناصر مثل الايوان والأقواس والقبة والسرديب ولفافات الهواء وغيرها عن أنها الواسطة الأساسية لتنظيم التهوية في الفناءات الداخلية للمبني ، وتعمل إضافة إلى حلول معمارية إلى تخفيف درجات الحرارة،حيث انها وفي جوا لمناخ الحار والرطب، تقلل درجات الحرارة إلى 3 - 4 م عن حرارة المحيط الخارجي ، ناهيك عن أن لهذه العناصر المعمارية لها وظائفها الأخرى الجمالية والاجتماعية والنفسية كذلك ، من هذا يمكن القول استغلال هذه العناصر أو تطعيمها في الواجهات بشكل جمالي آخر وفق مواد البناء الحديثة .

وليست المرة الأولى التي تثار فيها هذه المسألة ، ولكننا نأمل أن يدب من جديد جدل واسع لاسترجاع حقوق مدننا المهذورة ، لكي تسترد مدننا أريثها المعماري وتسترد عافيتها وهبتها وشموخها ، ولتلبس حلا زاهية ولتعوض ما فاتها من الحرمان السنين والنسيان ولكي تصبح بجدارة صروحا حضارية كما كانت ، وليس كما هي

الآن ، بعدما اكتسحت الألواح الزجاجية القاسية واجهات المباني في مدننا العربية حتى تكاد أن تعمي بصر الناظر من شدة انعكاس الضوء من الواجهات فتزيد المكان إشعاعا وحرارة وقساوة .

أن المخرج الوحيد من هذا لضياع المعماري ، هو الوقفة الجادة التي ينبغي أن يقفها المهندسون والمهندسون المعماريون والفنانون التشكيليون والكتاب والمبدعون في مجالات التراث وذوي الأمر ، لإعادة طرح هذه القضية من كل جوانبها ، طرحا متواصلا لا يكف عن التقييم الموضوعي للأسس المعمارية التراثية منها والحديثة ولتبيان ما تنطوي عليه كل منهما من وظائف إنشائية ومعمارية وجمالية وصحية للإنسان العربي . وإظهار ما يتلائم منها مع ظروفنا المناخية والاجتماعية لايصالنا إلى ما نصبوا إليه ، والله المستعان

بقلم

الدكتور حسام آل زوين.